

العتابي

نحن اليوم تلقاء شاعر من أكبر شعراء القرن الثاني وأرفعهم مكانة وأظهرهم شخصية وأبلغهم أثراً في الحياة الأدبية ، وإن كان يختلف في كثير عن الجمهور الأعظم منهم . فهو شاعر عربي صميم ، من أسرة عربية عريقة في تمثيل الخصائص العربية وفي قول الشعر معاً . وقد نشأ وترى وتكونت شاعريته واستقامت له طريقته في قول الشعر وصلب عوده فيه في بيئة عربية أدنى إلى البداوة ، بعيداً عن تلك البيئات المعهودة في البصرة والكوفة وبعداد . ثم هو كان مع هذه النشأة البدوية ، وهذا البعد عن تلك البيئات التي كانت تمد شعراء ذلك العصر بمقومات أدبهم ، وتدفع بهم قدماً نحو التجديد في شعرهم ، شاعراً أدنى إلى التجديد منه إلى التقليد ، وأقرب إلى مسايرة روح العصر الذي كان يطلق عليه في القرن الثاني والثالث ، وأستاذ من أساتذة الفن الشعري : ينسج الشعراء على منواله ، ويسلكون سبيله ، ويجدون في طريقته وأسلوب صياغته ومذهبه في التوفيق بين الديباجة العربية والنزعة التجديدية ما يفتنهم ويقف بهم عليه ويغريهم بتبعه وتعرف منزعه . ثم هو بعد ذلك كله لم يكن يقف عند الشعر في التعبير عن تلك النفس الفنية التي يحملها بين جنبيه ؛ فقد دفعت به روح العصر إلى ما وراء تلك الحدود التي كان معاصروه من الشعراء ما يزالون محصورين فيها ، لا يكادون يتجاوزونها ، فجعل يصطنع النثر في التعبير الفني كما كان يصطنع الشعر ، وكان يصطنع النثر في صورتيه ، فكان خطيباً مذكوراً في الخطباء الظاهرين ، كما كان كاتباً تعتبر رسائله من النماذج البليغة الممتازة ، دقة في المعنى واحتفاظاً بالروح العربية وصفاتها المميزة للأسلوب العربي كما كان يتصور في ذلك العصر . ثم كان مع هذا كله معدوداً من أئمة النقد الفني القائم على الذوق والدرس في تلك الفترة ،

يلتمس العلماء رأيه بين ذلك الخليط من الآراء الصادرة من هنا وهناك ،
ويقدرونه ويعرفون خطره ، ويسندون به في موضع الاستهاد
وإذن فقد كان العتابي مثالا رائعا من هذه الشخصيات التي نبغت في
القرن الثاني ، واستطاعت أن تتمثل العوامل المختلفة التي تجمعت في ذلك
العصر ؛ إذ وحدت هذه العوامل فيهم القوى التي تستطيع أن تبرزها وتظهر
فيها ، حتى تنتهي إلى غايتها المقدورة في تكوين العقل الاسلامي والحضارة
العربية . وكان أحد أولئك الرواد الذين تمتاز بهم هذه المرحلة الانتقالية
البعيدة الخطر في تاريخنا الأدبي والعقلي جميعاً ، والذين اضطلعوا بشق السبل
التي تهيئ لذلك التطور أن يحقق مظاهره المختلفة . ومع هذه المنزلة المتعددة
النواحي لم يكدهم يظفر بشيء مما ينبغي لمثله من تجلية شخصيته وتبين أثره ،
إلا هذه الأثرات القليلة الضئيلة المقتضبة ، تشير إليه ثم تقف ، وتنبه تنبيها
خفيفاً عابراً إلى خطورة مكانه في تاريخنا الأدبي ثم تمضى عنه ، حتى ذهب
الرجل معموراً أو كالغمر . لا يكاد احد من رجال الأدب المعاصرين يعني به
أو يقف عنده ، بالرغم مما قدمنا

وسنحاول في هذا الفصل أن نقدم صورة لحياته ، قدر ما تأذن لنا
مصادرنا القليلة المقتضبة ، وآثاره النزر المشتتة المضطربة ، ثم قدر ما يحتمل
مثل هذا الفصل

والعتابي شاعر جزري الأسرة والمولد والمربي ، ولد في الجزيرة وشابها
واستكمل مقومات شخصيته فيها . والجزيرة إذا أطلقت فاعني بها جزيرة
أقور ، كما كان يسميها جغرافيو العرب المتقدمون ، أو ميزوبوتاميا كما كان
يسميها الرومان ، ويعنون بها الجزء الأعلى من وادي دجلة والفرات . بين
العراق والشام وبلاد الروم وأرمينية وأذربيجان .

وليس بنا في هذا الفصل أن نعرض لخصائصها الاقليمية وما يتبع ذلك
من العوامل المختلفة التي كونت لها شخصيتها الخاصة بها ، وطبعها بذلك
الطابع الأصيل المسيطر عليها ، وما يصدر عنها من نزعات كان لها — ولا ريب —
أثرها في تكوين آثارها الفنية وتوجيهها ؛ فذلك — على ضرورته — مما لا يحتمله
هذا الفصل ، إذ كان من أشد الدراسات تعقيداً وأكثرها تشعباً وأبعدها

غاية . ثم هو من أوثق الدراسات صلة بتاريخنا الأدبي ، وأجدرها أن يفرغ بعض الباحثين له ، ويقتسموا أطرافه ؛ إذ كانت هذه المنطقة من أقدم المناطق التي هاجر إليها العرب واتخذوها موطناً لهم ، فتأثروا بها وتأثرت بهم . فما لا يكاد يحتمل الريب أنه كان لهؤلاء العرب أثر غير قليل في بعض وجوه حياتها السياسية والاجتماعية ، كما استطاعوا منذ ذلك العهد أن يكون لهم فيها أديبهم العربي الخالص يصور ألوان حياتهم وصنوف مشاعرهم وما كان يشجر بينهم ، ثم ما كان يثور بينهم وبين أصحاب السلطان من محادة ومخاصمة لا تلبث حتى تغمر الجب مظاهرها المادية والأدبية معاً ، على النحو الذي نستطيع أن نرى أطرافاً منه فيما بين أيدينا من بعض الشعر والحبر .

وإذا كان النشاط الأدبي مظهرًا لا يكاد يتخلف من أقوى مظاهر الخصومات أو النشاط الحربي في مثل تلك البيئات ، فإنا نستطيع أن نعرف إلى أي حد بلغ هذا النشاط في الجزيرة إذا عرفنا مبلغ ما كانت تمتاز به من حياة العرب فيها بعد الاسلام من نشاط حربي لا يفتقر ، وثورة على السلطان دائمة متصلة . ولعل ذلك إنما كان استمراراً لما كان يمتاز به هذا الاقليم قبل الاسلام من هذه الناحية ، ثم لهذه الصفات العربية البدوية المتأبئة على النظم والقيود . وقد عاش العرب في الجزيرة محتفظين بالطابع البدوي لهم حريصين عليه ، بالرغم من مظاهر الحضارة العريقة فيها ، حتى أمكن أن يقال مثلاً عن أعشى تغلب - كما يحكى صاحب الأغاني - أنه « كان من ساكني الشام إذا حضر ، فاذا بدا نزل في ديار قومه بالموصل » . وكأما وجدت قبائل العرب في ظروف الجزيرة قبل الاسلام ما يغذى فيهم نزعاتهم البدوية ، ويذكر فيهم الرغبة في القتال ؛ إذ كان موقعها بين الامبراطورية الفارسية والامبراطورية الرومانية مما جعلها موضعاً للمنافسة بينهما ، وميداناً من أبرز ميادين النشاط العسكري تظهر فيه الخصومة بينهما حادة دائبة عنيفة .

فكما كانت الجزيرة مركزاً من أهم مراكز النشاط الحربي قبل الاسلام فيما كان بين الفرس والروم ، كذلك كان لها هذا الطابع بعد الاسلام . ولعله لا يغيب عنا أن سهول صفين التي دارت الحرب فيها بين علي ومعاوية إنما تقع على حاشيتها بينها وبين الشام ، وأنه قبل أن يلتقي الفريقان في تلك المعركة بصفين كانت المعركة ناشبة بين أنصار علي وأنصار معاوية في قلب

الجزيرة نفسها ، في مرج مرينا بين الرقة وحران . كذلك كانت تعتبر من أنشط الميادين التي تجلت فيها الخصومة على أشدها وفي أعنف صورها بين القيسية والليمانية ، ثم بين المضرية والربعية ، في أيام فتنة ابن الزبير . وما هذه المواقع التي تذكر بها وقائع الحرب بين الفريقين وتنسب إليها ، كما كسين والثرثار والحشاك والحضر والبليخ والسكير والكحيل المبارك وقرقيسيا ، إلا أسماء أسكنة تقع في شتى أنحاء الجزيرة حيث نشبت هذه المعارك التي كان لها مظهرها الأدبي في شعر شعراء هذه الفترة من هؤلاء وهؤلاء ، كالأخطل والقطامي وعمرو بن الاهتم وعمير بن الحباب .

ويطول بنا القول لو أننا تتبعنا تاريخ هذا النشاط الحربي ومظاهره في الجزيرة . ولكننا لا نملك إغفال الإشارة إلى مبلغ ما ساهمت به هذه المنطقة في تلك الحروب والثورات التي جعل الخوارج يشنونها على الدولة ، في عهد بني أمية وعهد بني العباس ، ونحن نعرف بعدد مبلغ النشاط الأدبي الذي كانت تثيره هذه الحروب والثورات خاصة . وما هذه الثورات التي كان يقودها سعيد ابن بهدل والضحاك بن قيس وشيبان بن عبد العزيز اليشكري والملبد بن حرملة والوليد بن طريف وخراشة الشيباني لإثورات جزرية ، نشبت في الجزيرة وقامت بأهلها . وقد ظلت متصلة لا تحمد واحدة حتى تشتعل أخرى ، ثم لا تلبث حتى يمتد أوارها إلى ما وراءها . ولا ريب أن لهذا دلالة القوية على ما قدمنا الإشارة إليه من احتفاظ العرب الذين استوطنوا الجزيرة بخصائصهم البدوية .

في هذه البيئة البدوية ، ومن بين هؤلاء القوم ، خرج شاعرنا العتابي ككثوم بن عمرو ، من أسرة يتصل نسبها بعمر بن كثوم صاحب العلقمة المشهورة ، كما تتصل إقامتها في الجزيرة إلى ما قبل ذلك العهد الذي كان يعيش فيه ذلك الشاعر الجاهلي الكبير .

ولم يصل إلينا شيء عن نشأة العتابي الأولى نستطيع أن نتمثله به ، فنعرف على أي شيء تفتحت مشاعره ، وبأي أنواع الثقافات أخذ نفسه أو أخذه ذووه أو وجهته الملابس والظروف ؛ فذلك ما لا قبل لنا بمعرفته معرفة تبعث على الطمأنينة العلمية . لقد كان مولده ونشأته في تلك المنطقة التي تشبه أن تكون

منعزلة ، والبعيدة عن مركز النشاط العلمى والادبى ، مما اضاف عاملاً جديداً من عوامل الغموض الذى يحيط بنشأة أسئله . على أنه قد بقى لدينا خبر من أخبار حدائته لعلنا نستطيع أن نتشيت به ، ونرى فيه ما يدلنا على الاتجاه الغالب عليه فى بدائته الشعرية . فقد قالوا إنه جاء بشاراً وهو حدث بعد ، فأنشده أبياناً له وقعت من بشار - فيما يقولون - موقع الاعجاب ، وهى قوله :

أتصرف عن أمانة أم تقيم وعهدك بالصبا عهد قديم
أقول لمستطار القلب عفى على عزماته السير العزيم
أما يكفيك أن دموع عنى شآبيب تفيض بها الهموم
أشيم فلا أرد الطرف إلا على أرجائه ماء سجوم

فها هى ذى شاعرية مبتدئة تتلمس طريقها ، وتحاول أن تثبت قدمها فى ذلك المذهب الذى اتجهت إليه وأرادت أن تصطنعه ، وهو مذهب «البديع» الذى استطاع بشار بشخصيته القوية أن يلفت إليه الأنظار ويبرها به ، ويجذب ناشئة الشعراء إليه ، من أسئال صاحبنا هذا كلثوم بن عمرو . فى هذه الأبيات التى تبدو عليها أسارات الفجاجة الفنية نستطيع أن نلاحظ أثراً من آثار هذه الفتنة بذلك المذهب الجديد فى صناعة الشعر ، كما نستطيع أن نعرف فيها صورة من الاتجاه الشعرى عند العتابى أول عهده بالشعر ومعالجته ، فى مثل ذلك الجنباس المقصود فى قوله . « . . . عفى على عزماته السير العزيم » ، وفى مثل تلك الاستعارات المصنوعة صناعة ، وذلك الصور المجازية المتكلمة الذاهبة فى سبيل المبالغة ، كشآبيب الدموع التى تفيض بها الهموم ، أو الماء السجوم على أكناف الطرف المرتد .

فقد اختار العتابى إذن سبيل أصحاب البديع منذ حدائته ، مفتوناً بها ، لا يعبأ أن يعنف بنفسه فى تكوين تلك الصور الشعرية ليتحقق بذلك على الوجه الذى استطاع أن يتصوره ، وهو بعد حدث لم ينضج ولم تكتمل له وسائله الفنية . وتبدو فى هذا الخبر الذى سقناه تلمذته لبشار ، وأنه كان يعتبره صاحب ذلك المذهب ومثله ، فلم يكذب يعلم أن فى إمكانه لقاءه حتى يمضى إليه يعرض عليه شعره . وبشار يرى فى ذلك الشعر اتجاهه ومذهبه ، وهو يظهر رضاه عنه وثنائه عليه وإعجابه به .

أما كيف لقي العتابي بشارا ، وأين ، ومتى ، فهذا ما لا نجد النص عليه ولا الإشارة إليه فيما بين أيدينا .

ولكننا نعلم أن بشاراً رحل إلى الجزيرة ذات مرة ، قاصداً سليمان بن هشام ابن عبد الملك ، فدخل حران حيث الأمير ، وأقام بعض الوقت . وكان ذلك - ولا ريب - في أواخر عهد الأمويين . فهل يمكن افتراض القول بأن العتابي لقي بشاراً في هذه المناسبة : سمع بمقدمه ، وكان صيته قد سبقه ، وكان مذهبه في الشعر موضع فتنة كما قلنا ، فمضى إليه يعرض شعره عليه ، وقد رآها فرصة نادرة أن يجلس إلى ذلك الأستاذ وينشده ويأخذ عنه ويسمع رأيه ويرضى غروره الصبباني ؟ ذلك فرض قريب محتمل ليس ما يمنع منه .

ومهما يكن من أمر فقد كان العتابي أحد تلاميذ تلك المدرسة الجديدة التي استطاع بشار بقوته وما أتيح لشعره من أسباب الذيوع والقدرة على التغلغل في الأوساط المختلفة ، أن يفرضها ويختط سبيلها ويأخذ ناشئة الشعراء بها . فهذه واحدة لا بد لنا من تقريرها ونحن نحاول تبين هذه المرحلة من حياته .

وأخرى تعرض لنا ونحن في ذلك الصدد : لقد نشأ العتابي في تلك البيئة التي حاولنا تصويرها ، وهي بيئة بدوية طبعت على الثورة والتمرد ، وقد شهد ولا ريب كثيراً من مظاهر ذلك التمرد ، وتفززت منه عواطفه ، وتأثرت به مشاعره آثاراً مختلفة . بل لقد كان يشهد إلى جانب ذلك الذي يدور حوله كثيراً من الصور تتراءى في نفسه وتثير مشاعره ، مما كانت أسرته ما تزال حريصة على تناقله والاعتزاز به عن جدها الأكبر وبعث فخرها عمرو بن كلثوم . ولكن شيئاً من شعره لا يصور لنا شيئاً من هذه المظاهر ، ولا يعبر عن مثل هذه المشاعر ، بل إن شعره الذي بين أيدينا يمثل لنا الهدوء والأناة والهدوء . ومرجع ذلك أن شيئاً من شعره في تلك الفترة الأولى من حياته لم يصل إلينا ، بتأثير بعده في هذه الفترة عن مركز النشاط العلمي والأدبي ، فلم يظفر من الرواية بما يسجله ويكفل له شيئاً من الذيوع ، وأن ما وصل إلينا من شعره هو شعر الشيخوخة أو الكهولة ، حين اعتدلت أسبابه ، واتأدت نفسه ، وغلبت طبيعته الوادعة . واذن فهناك حلقة مفقودة في شعر العتابي تستلزمها حتماً طبيعة الأشياء ، كما تقتضيها أن نذكرها ونجعلها في بالنا حين

نذهب نتقصى العوامل التي أتاحت لشاعر كهذا الشاعر ، وحين نتلمس تصور حياته في هذه الفترة الغامضة المبهمة منها .

وثالثة ينبغي ألا نغفلها : ما عسى أن يكون أثر هذه الثقافات المختلفة التي كانت تتمثل في الرها وحران ونصيبين من مدن الجزيرة ؟ أحوال نشأته البدوية دون هذا التأثير ، أم أن شاباً طموحاً مثله ، متقد الذهن مشبوب العاطفة لا يمكن أن يظل بمعزل عن هذه البيئات ، وهو يعلم أن فيها غذاء لطموحه العقلي والأدبي ؟ لقد استطاعت هذه البيئات أن تبسط من قبل سلطانها شيئاً ما على هذه القبيلة التي ينتسب إليها العتابي ، والتي خرج منها شاعر كالأخطى وآخر كالقطامي ، فكان للمسيحية فيها مكان ملحوظ ومنزلة ظاهرة ، فهل يستقيم القول بأنه ظل في معزل عنها ، بعيداً عن التأثير بها ؟

بل كيف تكونت ملكات هذا الرجل الفنية على ذلك النحو الذي جعل منه إماماً من أئمة المجددين في العبارة الأدبية شعراً وثرأ ؟ وكيف استقامت له الروح العلمية التي أتاحت له منذ اتصل بالبيئات البغدادية ، وهو شيخ كبير علت سنه ، أن يغامر في ألوان الحياة العلمية المتصلة بالنقد الأدبي ، إذا كان قد أمضى حياته الأولى في تلك البيئة البدوية الساذجة بتقاليدها وروحها المحافظة دون أن يدع لتلك الثقافات العقلية سبيلها إليه ، توسع من آفاقه العقلية وتحرر مُثله الفنية ؟ إن افتراض القول بأنه اتصل منذ عهد التكوين بتلك الثقافات ضرورة لا نكاد نجد عنها معدلاً في منطق البحث الأدبي ؛ وبذلك استطاع أن يكون له في تاريخ الأدب ذلك الأثر الذي أجهلنا القول فيه .

وإذا صح لنا هذا الفرض عن العتابي الذي نشأ بعيداً عن البصرة وبغداد فجدير بذلك أن يحملنا على العدول عما أُلّفناه وجرينا عليه من حصر العوامل التجديدية فيهما ، ورد كل تطور أدبي إليهما . فانما ينبغي لتاريخ الأدب أن يمد النظر هنا وهنا ، ويتغلغل به في تلك البيئات التي كانت بعيدة عن مركز الدولة ومستقر السلطان ، فصرف ذلك الأنظار عنها ، وتركها في غمرة الاغفال والنسيان ، ثم اطرده الأمر على ذلك حتى أيامنا هذه ، لا نكاد نخرج عن هذه الدائرة ، أو نرى في غيرها مجالاً للنظر والبحث والتقصي .

لقد كانت الجزيرة مركزاً من مراكز الحياة الأدبية القوية النشيطة المتصلة منذ العصر الجاهلي ، كما كانت مركزاً من مراكز النشاط السياسي على

النحو الذي رأيناه . فأما في أيام بني أمية فقد سجل لها شعراؤها مكانا ممتازا ؛ إذ كانت صلتهم بالدولة في دمشق صلة يقدرها السلطان ويحرص عليها ويغالي بها ، ونحن نعرف بعد المنزلة التي كان يتمتع بها الأخطل في البلاط الأموي . فاذا كانت أيام بني العباس فقد تغيرت الأمور وتبدلت الأوضاع ، فحدثت الجفوة بينها وبين الدولة ، حتى أصبحت فيما يشبه العزلة من هذه الناحية ، ومضت الحياة الأدبية فيها محدودة بمحدودها ، حتى ما تكاد أصداؤها تعدوها ، ولا تكاد بغداد تشعر بها ، ولا نكاد نرى شاعراً جزريا يقصد قصدها أو يتصل بالسلطان فيها ، إلا ما كان من مثل ربيعة الرقي . وهو لم يقصد إليها ، وإنما استقدمه المهدي استجابة لرغبة جواريه ، كما يقولون . وكان ربيعة هذا — فيما يقول أبو الفرج — « من الكثيرين الحميدين ، وإنما أخمل ذكره وأسقطه عن طبقته بعده عن العراق وتركه خدمة الخلفاء » . وهكذا كان — فيما يبدو — شأن الحياة الأدبية عامة في الجزيرة : أحملها وغض من شأنها « البعد عن العراق وترك خدمة الخلفاء » .

وهكذا كان أيضاً الشأن في هذه الفترة الأولى من حياة شاعرنا العتابي ونشاطه الأدبي فيها ؛ فقد مضى — بالنسبة للرواة ودارسى الأدب — مغموراً ، يغشاه الإبهام المطلق ، وتحتوشه الظلمات ، فما يبدو منه إلا تلك الومضة الخاطفة التي تشير إلى صلته ببشار ومحاولته اصطناع مذهبه في صناعة الشعر . ثم تظل هذه الظلمات تحيط به ، وتضرب من دونه نطاقاً غفلاً ، حتى عهد الرشيد ، حين يتجه هذا الخليفة بعنايته إلى هذه المنطقة ، ويتخذ من الرقة داراً له ، يكثر من النزول فيها والامام بها ، وحينئذ تنجاب هذه الظلمات بعض الشيء عن العتابي ، فتراه ماثلاً أمامنا ، متصللاً برجال الدولة ، وبالبيئات البغدادية المختلفة .

كان بدء ذلك في أثناء ولاية عبد الملك بن صالح العباسي على الجزيرة ، وفي أعقاب فتنة من هذه الفتن التي كانت ما تلبث حتى تشتعل هنالك ، إما ثورة على الدولة القائمة تصدر عن نزعات دينية أو جنسية ، وإما ثورة داخلية بين هذه القبيلة وتلك استجابة لروح العصبية القبلية . وقد أخذت الدولة في قمع هذه الثورة التي كان قوامها رجال ربيعة ، قبيلة العتابي وعشيرته ، فنكلت

بها وجردت السيف فيها وأنهكتها عقوبة واستقصاء فيها . والعتابي الشيخ يحس الوجعة لما يشهد من مصارع قومه ، فلا يجد إلا أن يتقدم إلى الأمير بقصيدة يعتذر فيها لهم ، ويستوهبه العفو عنهم ، وهي قصيدة ما تزال قطع منها بين أيدينا تصور العاطفة المترنة ، كما تصور صناعة العتابي الشعرية في هذه المرحلة من حياته ، من الديباجة المصقولة والسرمد المحكم والصور الفنية المجودة . وقد بلغ العتابي بهذه القصيدة الغاية التي كان يرجوها ، فلم يلبث الأمير أن أمر قائده أبا عصمة أن يكف سيفه .

« فلما قدم الأمير الراققة أنشده عبد الملك القصيدة ، فقال : لمن هذه ؟ فقال : لرجل من بني عتاب يقال له : كلثوم بن عمرو . فقال : وما يمنعه أن يكون بابنا ؟ فأمر باشخاصه من رأس عين . فوافى الرشيد ، وعليه قميص غليظ وفروة وخف ، وعلى كتفيه ملحفة جافية ، غير سراويل » كما يقول أبو الفرج في سياق الكلام عن هذه القصيدة .

وهكذا خرج العتابي من بيئته ، فلم يكد يتصل بالسلطان حتى أخذ سبيله إلى بغداد ، فترك البادية إلى الحاضرة ، وترك حياة القبيلة إلى ذلك المجتمع الزخار بأنواع الناس وأصناف اللباس ، كما يقال . فماذا كان من شأنه في هذه البيئة الجديدة ؟ لم يكن العتابي رجلاً بدوياً خالص البداوة من جميع جوانبه وإنما كان مزاجاً من هذه وتلك : كان بدوياً في مظهره وأسلوب حياته وبساطة مشاعره ، ثم كان بعد ذلك يمثل الرجل الحضري المترف بعقله وأسلوب تفكيره ومنهجه في الصناعة الفنية ؛ وبذلك استطاع أن يتصل بالبيئات الرفيعة المختلفة في بغداد ، لا باعتباره شاعراً بارز الشخصية من شعراء الطبقة الأولى فحسب ، وهو الاعتبار الذي وصل بينه وبين السلطان ، بل باعتباره — إلى جانب ذلك — عالماً من علماء الشعر وأصحاب الرأي فيه ، وباعتباره كاتباً جيد الكتابة استطاع أن ييهر الناس بأسلوبه فيها ، وباعتباره خطيباً يعرف كيف يدير القول ويصيب المفصل ويفتن الألباب ويبلغ غاية الاقناع بقوة بيانه وجودة عبارته ووضوح حجته . فقد اجتمع له إذن من وسائل التبريز في تلك البيئات ما لم يجتمع لسواه ، ونزل من أصحابها منزلة كبيرة ، حتى لقد كان يحيي بن خالد البرمكي يقول لولده : « إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو فضلاً عن رسائله وشعره . . . فلن تروا أبدأ مثله » . وهكذا لم يكد العتابي يتصل

ببغداد حتى هيات له مواهبه أن يحتل في المجتمع البغدادى المثقف هذه المنزلة الرفيعة ، وأن يتبوأ في أندية بغداد الأدبية التي كانت تتمثل في بيوت السراة وأصحاب السلطان ذلك المكان الظاهر . وقد أحاطه البرامكة برعايتهم وأولوه حمايتهم ، وأشعروه روح الطمأنينة في ذلك المجتمع الجديد .

ومن ذلك يبدو أن العتابي أصاب في هذه البيئة الجديدة نجاحاً جديداً لعله فوق ما كان يقدر . ولكن هذا النجاح إنما أصابه العتابي الشاعر الكاتب العالم الخطيب ، فأما العتابي الرجل ، الذي كانت الروح البدوية في أعماقه ، مسيطرة عليه وموجهة مشاعره ، فكان شيئاً مختلفاً ؛ فما أصابه ذلك نجاحاً وظهوراً أصابه هذا إخفاقاً وتخلفاً . ذلك أن الحياة الاجتماعية في بغداد كانت معقدة أشد التعقيد ، محكومة بطائفة من الاعتبارات أدنى إلى السخف ، وكانت صلات الناس بعضهم ببعض لا تقوم على المودة الخالصة والمعاني النفسية قدر ما تقوم على التماق والحادعة والمصانعة والتماس المنفعة العاجلة . وكانت أسباب الرجل في هذه الحياة مشتقة من طبيعة هذه الحياة القائمة على التكلف والتصنع ، لا من صفاته النفسية أو مواهبه العقلية أو الفنية حين يكون المجال الذي يقوم فيه ويؤدى عمله مجالاً فنياً أو عقلياً . فأتى هذه الشاعر البسيطة والخلائق الصريحة المستقيمة أن تعرف سبيلها في تلك المسالك المتتوية ؟ ولو أن العتابي جاء ببغداد قبل أن يشيخ ويصلب عوده على الوضع الذي نشأته عليه البادية فلعله كان يملك لنفسه شيئاً من الملاءمة بينها وبين تلك البيئة الاجتماعية المعقدة ، ولكن ذلك شئ لا يمكن استرجاعه . فلا بد إذن مما صارت أموره إليه . وهكذا كان صاحبنا يحس أنه يحيا في بغداد حياة مقسمة ، فهو ناجح محقق ، وهو متقدم متخلف ، وهو موضع التقدير وموضع الغبن والتأخير . ولعل هذه المفارقات كانت من أول ما جعل يؤرّه ويملاّ حياته عناءً وجهداً ، وقد جعلته يقارن بينه وبين غيره فيرى الدنيا مقبلة على هذا وذاك مدبرة عنه دون أن يكون لهذا الاقبال والادبار - فيما يحسب - سبب يرجع إلى طبيعة الأشياء .

قالوا إنه مر بأبي نواس ذات مرة ، وقد اجتمع إليه طائفة من الناس ، وهو ينشدهم قصيدته في مدح الخصيب بن عبد الحميد :

ذكر الكرخ نازح الأوطان فبكي صبوة ولات أوان

فلما رآه أبو نواس قام إليه وسأله الجلوس ، فأبى وقال : أين أنا منك وأنت القائل ، وقد أنصفك الزمان :

قد علقنا من الخصيب حبلاً
وأنا القائل وقد جار على وأساء إلى :

لفظتني البلاد وانطوت الأكفاء دوني وملني جيران
والتقت حلقة عليّ من الدهر فما جت بكل كل وجران
نازعتني أحداثها نهمة النفس وهدت خطوبها أركان
خاشع للخطوب مفترق القلب كثيب لناثبات الزمان

لقد أبعثته المفارقة وملاّت جوانب صدره ضيقاً و برماً حين نظر إلى أو نراس
فرأى البون الواسع بينه وبينه ، ثم رآه مقبلاً عليه متحفياً به ، فكأنما رأى
شيئاً منكرًا لا تسيغه مشاعره البسيطة الساذجة .

ولم يكن نظر العتابي إلى من حوله ممن أقبلت الدنيا عليهم ، ثم مقارنة
حاله بجاهم ، عن حقد منه أو ضغينة يضطغنها عليهم ، فلم يكن بالرجل شيئاً
من هذا . فإما يحقد الرجل الصغير عند نفسه ، يستشعر الضعة في أعماقه ،
فأما العتابي فكان معترًا بنفسه ، مقدرًا لكرامته مكبرًا لها ، يراها أول ما ينبغي
للرجل أن يحرص عليه ويغالي به . ومن ذلك هذه القطعة المأثورة عنه وقد
جعلها كالوصية لأصحاب الحاجات : « إن طلبت حاجة إلى ذي سلطان فأجمل
في الطلب إليه ، وإياك والالحاح عليه . فان إلحاحك يكلم عرضك ، ويريق
ماء وجهك ، فلا تأخذ منه عوضاً لما يأخذ منك . ولعل الالحاح يجمع عليك
إخلاق الوجه وحرمان النجاح . فانه ربما مل المطلوب إليه حتى يستخف
بالتطلب » . وليس هذا كلام رجل يجد الحقد سبيلاً إلى نفسه ؛ فالحرص
على ماء الوجه وكرامة النفس لا يتفق مع الصغار الذي هو قرين الحقد
وباعثه .

لقد نشأ العتابي في تلك البادية التي رأينا مبلغ إباؤها واعتزازها وما تفيضه
على أبنائها من مغالاة بالكرامة وتقدير للشخصية واعتداد بالذات ، وفي
أسرة ما تزال تتمجد بذلك التاريخ الذي كتبه لها عمرو بن كلثوم ، تتوارثه

وتتدارسه وتغذى به في بنيتها ذلك الشعور بالكرامة والاعتداد بالنفس والاكبار للذات . وقد بقي في هذه البيئة حتى أسن واكتهل ، حفيظاً على تقاليدها ، حريصاً على مظاهرها ، يكره أشد الكره أن يغفلها أو يتبدل بها ، كما تدلنا على ذلك أخباره دلالة صريحة . وقد مضى إلى بغداد بهذه الطبيعة وفي تلك السن العالية ؛ فكانت هذه المفارقات الصارخة التي رأيناها ، والتي عبر عنها بهذه العبارة الهادئة ، حين سأله أحد أصحابه ذات مرة : « ما بالك لا تقصد السلطان كما يفعل فلان وفلان؟ » فقال : « لأنني أراه يعطى واحداً لغير حسنة ولا يد ، ويقتل الآخر لغير سيئة ولا ذنب » . وقد جعلت هذه المفارقات تؤله ، ولكنها لم تستطع أن تجعله يصوغ نفسه على غرار ما يتطلب ذلك المجتمع . وإذا كنا نسمعه مرة يقول :

أسجد لقرود السوء في زمانه
وإن تلقاك بخنزوانه
لا سيما مادام في سلطانه

فإنما تلك في حقيقة الأمر سخيرية مرة بالسلطان ، وتهزؤ بذلك النظام الاجتماعي الذي يلبس الأشياء غير لبوسها ، ويضعها في غير مواضعها . وهكذا كانت حياة العتابي في بغداد حياة مقسمة ، وهكذا كانت مشاعره فيها : إحساساً بالألم والوجيع ، كما نرى في تلك الأبيات التي أنشدتها أبا نواس ، ثم سخيرية من تلك الأوضاع المنكرة التي ألفها الناس واستكانوا لها فلم يعودوا يرون فيها شيئاً من النكر الذي عبر عنه في تلك القطعة الصغيرة الساخرة ، حين قدم إلينا صورة القرد وقد انتفخ سحره وشمخ أنفه واصطنع التيه والجبرية ، والناس أمامه قد خروا سجوداً له . . . ثم إحساساً باليأس وارتياحاً إليه على النحو الذي نراه في قوله :

ألا قد نكس الدهر فأضحى حلوه مرا
وقد جربت من فيه فلم أحمدهم طرا
فألزم نفسك اليأس من الناس تعش حرا

ولكن الأمر لم يقف عند ذلك الحد ، ولم يستطع العتابي بالرغم من موقفه

أن يعتصم من سوءات ذلك المجتمع وشروبه . فهذه الصلة الضئيلة التي اتصلها بالسلطان لم تلبث أن أثارت حوله التضغائن ، ونصبت له السائس . فمرة هو متهم بأنه أقبح اسم الخليفة في بعض ما كان يمازح به إخوانه ويعبت به وإياهم ، وهو مأخوذ مرة أخرى بأنه كان « يقول بالاعتزال — كما يحكى ذلك الجهشياري — ماتصل ذلك بالرشيد ، وكثر عليه في أمره فأمر به بأمر عظيم » . ولا ندري كنه ذلك « الأمر العظيم » الذي جعله الرشيد عقوبة له ، ولكنه قد حمله على كل حال على أن يهرب إلى اليمن ، ثم ظل مقياً بها حتى استنقذه يحيى بن خالد البرمكي مما كان يساوره من المخاوف فيها ، فأزال بالرشيد حتى استصدر له العفو عنه .

ولعل هذه المكربة كانت من أكبر ما وثق بالبرامكة أسبابه ، ولو أن النكبة لم تلبث أن وقعت بهم ، فبكاهم ، ثم لم ير بعد ذلك ما يمكن أن يغريه بالبقاء في بغداد ، فولاها ظهره ، وانطلق عائداً إلى الجزيرة . وقد جعلت مشاهد بغداد تتردد في خياله ، وجعل يستعرض حياته فيها ، فيرى أنه لم يفد شيئاً منها ، وأنه راجع إلى وطنه أخيراً كما تركه تقرباً صفر اليد مما كان يؤمله ويمنى النفس به من المال الذي كان يريد أن يبني به ما هدم الاقتار من مأثرته ومن خطر أسرته . ولكنه ما يلبث أن يتعزى عما فاته من ذلك بمصرع البرامكة وقد بلغوا ما بلغوا ، فيمضى وهو يردد هذه الأبيات :

طوى الدهر عنها كل طرف وتالد	تلوم على ترك الغنى باهلية
مقلدة أعناقها بالقلائد	رأت حوفا النسوان يرفلن في الكسى
من العيش أو ما نال يحيى بن خالد	أسرك أنى نلت ما نال جعفر
مغصهما بالمرهفات البوارد	وأن أسير المؤمنين أعصنى
ولم أتجشم هول تلك الموارد	ذرينى تجئنى مبتتى سطمئنة
بمستودعات فى بطون الأسود	فان رفيفات الأمور مشموية

لم يكن هذا آخر عهد العتابي ببغداد ، فإتكاد تنتهى فتنة الأمين والمأمون وتستقر الأمور فيها ، ويرجع المأمون إليها ، ويفد الناس عليه من هنا وهناك ، حتى نرى العتابي ببابه ونشده وقد تشبث يحيى بن أكرم القاضي ، يريد

أن يذكره لديه ويستأذن له عليه ، وابن أكرم يذكر له أنه ليس حاجبًا .
ولكن العتابي ما يزال به يلاحيه ، حتى ما نلبث أن نراه في مجلس الخليفة ،
وفي المجلس إسحاق بن ابرهيم الموصلى . وقد أحسن المأمون لقاءه وأكرم
وفادته . تم نراه بعد ذلك وقد انصرف مع الموصلى إلى منزله نازلا عليه .
وهناك في دار الموصلى جعل له مجلساً يختلف إليه أهل الأدب والمتأدبون ،
يسمعون منه ويكتبون عنه ويذاكرونه في مسائل مختلفة من مسائل الأدب
والشعر . ولعل هذه المجالس والأمالى التى كانت تلقى فيها هى الأصل فى
هذه الكتب التى يذكرها له باقوت ، وهى : كتاب المنطق ، وكتاب
الآداب ، وكتاب فنون الحكم ، وكتاب الحيل ، وكتاب الألفاظ ، وكتاب
الأجواد ، ثم كتاب آخر لم يذكره باقوت وإنما نجد الإشارة إليه فى الفصل
الذى عقده صاحب الأغاني للكلام عن ابن سريج ، وقد أورد فيه قطعة
منسوبة له فى صفة المصيب الحسن من المغنين ، وقدمها بأنه نقلها عن كتاب
العتابي . وإذا كان أبو الفرج لم يسم هذا الكتاب فعلنا بهذه القطعة التى
نقلها عنه نملك القول بأن موضوعه كان الغناء وصفات المغنين ، ولعله كان مجموعة
روايات فى هذا الموضوع أتيح له أن يسمعها فى خلال إقامته الأولى ببغداد ،
حتى إذا كانت إقامته فى دار إسحاق بن ابرهيم الموصلى - وهو من عرف فى
الغناء - وجد فى ذلك ما حفزه إلى وضع هذا الكتاب وإملائه .

وكانت دار إسحاق بن ابرهيم الموصلى تعد من أكبر الأندية الأدبية فى
بغداد ، وأكثرها تمثيلاً لوجوه المتع الفنية والعقلية ؛ إذ كان الرجل من أكثر
أهل عصره تحصيلاً لثقافات العصر وتحققاً بها وتدوقاً لها : كان عالماً شاعراً
أديباً ، وكان يعد رأس المغنين وإمامهم ومعلمهم ، وكان إلى جانب ذلك
رجلاً سرياً بكل معانى السراوة فى المال والخلق ، نبيلاً رحب الجانب أريحي
النفس مهذب الطبع ، فكان أهل ناديه يجدون عنده حاجات نفوسهم
ومطالب عقولهم ولذاذات أذواقهم . فلا جرم أحس العتابي عنده كثيراً من
الروح كما أتيح له أن يعقد صلته عنده بكثير من سراة البغداديين فى هذه
الفترة كأحمد بن هشام وأخيه على بن هشام وعبد الله بن طاهر .

ولكن العتابي لا يلبث - وقد تقدمت به السن - أن يحس الحنين
الشديد إلى موطنه ، فيعود إلى الجزيرة يقضى فيها أيامه الأخيرة . وكان

ذلك — فيما تقدر — في عهد ولاية عبد الله بن طاهر عليها ، فيما بين سنتي ٢٠٦ و ٢١١ . وكان عبد الله هذا يأخذ بتقاليد السراة في عصره ، فيصطنع ألوان الترف العقلي والفني والمادى . وكذلك وجد العتابي في كنفه وحياطته وسماحة نفسه وحسن تقديره ما كفل له حياة راضية ، وجعله يستشعر الطمأنينة في هذه السن العالية .

ولسنا نعرف متى قضى العتابي نجه ، ولكننا نعلم أنه كان لا يزال ممتعاً بالحياة في سنة ٢١١ ، وهي السنة التي وجه فيها عبد الله بن طاهر إلى مصر . فقد حكى صديقه محمد بن النضر أنه مر به ، وهو في طريقه إلى عبد الله بن طاهر حين كان يريد مصر ، فجلس إليه وجعل يجاذبه أخبار الحياة الأدبية في العراق وبغداد . ولكننا لا نعلم عنه شيئاً بعد ذلك ، وأكبر الظن أنه لم يعيش بعد ذلك طويلاً .

طه الطاهرى